امرأة من هذا العصر

بقلم:جميل السلحوت

(امرأة من هذا العصر) رواية للأديبة السورية هيفاء البيطار، تقع الرواية الصادرة عن دار الساقي في بيروت عام ٢٠٠٤ في ٢١٤ صفحة من الحجم المتوسط.

وجدت نفسي وأنا أقرأ هذه الرواية أمام روائية تملك ناصية الكلمة، ومتمكنه من الفن الروائي، فقد رسمت لنا بلغة أدبية جميلة(بانوراما) فنية تأسر القلوب، فتجعل القارىء يحلق عالياً في سماء لغتنا الجميلة، وقدمت لنا عملاً روائياً متكاملاً يطغى عليه عنصر التشويق، فلغتها الانسيابية وعدم التصنع في السرد الروائي والجرأة في طرح(الموضوع) وضعتنا أمام ابداع متكامل .

عنوان الرواية: (امرأة من هذا العصر)واضح أن المؤلفة اختارت عنوان عملها الابداعي هذا بعناية فائقة، فنحن أمام امرأة نكرة، ولم تُعَرِّفها كي لا ينسحب نموذج هذه المرأة على النساء جميعهن، وهي من هذا العصر، وفي هذا استثناء للنساء جميعهن في العصور السابقة، وربما في العصور القادمة.

أهداف الرواية: تحمل الرواية في ثناياها رسالة حبّ، فالحبّ غذاء للروح والجسد والعقل، وهو العلاج السحري للعلاقات بين البشر، تماماً مثلما هو وصفة لاستتاب العلاقة الزوجية وبناء الأسرة السوية، وحبّ الحياة، وحتى علاج الأمراض بما فيه المستعصية.

"لماذا يجب أن نتحلى بالشجاعة دوماً لمواجهة الأزمات والمشاكل والموت، لِمَ لا يُستعمل هذا المفهوم لحبّ الحياة .. ألا يحتاج الحبّ الى شجاعة "ص١١

وفي الرواية نقد صريح لقضية اشتراط عذرية المرأة عند الزواج" مسكين وجيه كم يتعذب، إذ يفتتن بامرأة ذات شخصية قوية، متعلمة، مثقفة،وذكية، لكنه يريدها في الوقت نفسه عذراء، وليس لها تجارب عاطفية ... يبدو أنه لا يعرف أن هذه المعادلة يستحيل أن تتحقق لأن لا شيء يصقل الشخصية إلّا كل التجارب "ص٥٦

كما أنها تنتقد بشدة العلاقات الاجتماعية ومنها علاقة الرجل بالمرأة أو العلاقات العائلية في الموروث الثقافي الشرقي.

وموقفها من قضية(عذرية) الفتاة، والعادات والتقاليد الشرقية نابع من تأثرها بالثقافات الغربية التي ترفض كل ما هو شرقي.

الأنثوية: (امرأة من هذا العصر) رواية أنثوية بامتياز، وعامودها الفقري هو العلاقة بين المرأة والرجل، علاقة انجذاب الجنس للجنس الآخر، علاقة الحب،

علاقة الجنس، علاقة الزمالة .. الصداقة .. الأمومة .. الأخوة، لكن بيت القصيد هو علاقة الحب والجنس، والرواية تطرح بجرأة متناهية ما تريده المرأة من الرجل، وتكشف بصورة فاضحة فجاجة وقسوة الرجل في علاقته مع المرأة، فالمرأة على حق دائماً، والرجل مدان في هذه العلاقة بشكل شبه دائم .

شخصيات الرواية: مريم هي الشخصية الرئيسة في الرواية، وهي الساردة أو الراوية من ألف الرواية الى نهايتها، تتكلم بلغة الأنا، تبوح، تتحرك، تعمل،تمارس، تضغط ، تهجر، تعفّ، وتعهر، تحب وتكره، تشفق وتقسو، تعدل وتظلم، تتشاجع وتجبن، ترحل وتقيم، تعلم وتجهل، وهذه الضدية في شخصيتها التي حاولت المؤلفة أن تجعلها سوية، هي التي تجعل القارىء يحبها أكثر من أن يكرهها، ويتعاطف معها أكثر مما يقسو عليها، ويضيع في خبايا نفسيتها، وهي الشخصية المحورية في الرواية، أمّا رجالها الذين أحبتهم وما لبثت أن كرهتهم، ومن كرهتهم. وحتى النساء الأخريات، فكلهم كانوا يدورون في فلكها تحركهم كيفما ووقتما وأينما تشاء، وتسكنهم أو تحطمهم متى شاءت أيضاً

أحداث الرواية: تدور أحداث الرواية حول امرأة مهندسة-مريم- أصيبت بسرطان الثدي، واستأصله لها طبيب مختص، فتعيش صراعات نفسية حول كيفية إمكانية عيشها بثدي واحد، مع ما يمثله الثديان بالنسبة للمرأة، وبالنسبة لعلاقتها مع الرجل، تدرك فداحة خسارة ثديها، الذي تحاوره قبل أن تدخل غرفة الجراحة لاستئصالة، وتصل الى ما تعتبره حكمه بأن(ذاكرة المرأة في نهدها)

ص٩، فعلاقتها بالرجل مرتبطة بالثديين اللذين هما جزء هام من العلاقة الحميمية بينهما، حتى أن هذه العلاقة هي التي طغت على تفكيرها في اليوم السابق للعملية:"ستكون نهاية ثديي نهاية الرجل في حياتي .. لن أجرؤ بعد اليوم أن أحبّ رجلاً وأنا بثدي واحد" ص١٥ وبعد استئصال الثدي المتسرطن يبدأ العلاج الكيماوي، وهو علاج مرهق للمريض الذي يتعاطاه، ولكي تتغلب الراوية مريم المريضة على ألمها، فإنها قررت أن تستعيد ذكرياتها في علاقاتها مع الرجال، وفي الجلسة الأولى استذكرت ذلك البخيل الذي"كان رجلاً جميلاً وذكياً، ذا ثقافة استعراضية، ثقافة لم تمسّه في العمق بل تلزمه حين يكون وسط جماعة من الأصحاب والمفكرين" ص٣٢

وهذا البخيل"كان الزواج بالنسبه إليه صيداً أو صفقة .. بينما الحبّ أمر تافه في الزواج "ص٣٤ وعندما تتذكر علاقاتها الجنسية مع ذلك البخيل، فإنها تعتبرها ذكرى مؤلمة في حياتها.

ومريم تبرر علاقتها بالبخيل بتساؤلها:"هل أنا ضحية التركيز الاعلامي على الجنس كقيمة عليا تثبت لي أني متحررة ولديّ شهية للحياة؟أحسّ بالكره للرجل الذي سأسلمه جسدي من دون حب حقيقي، لكن لطالما تساءلت أن لم نصادف الحب في حياتنا فهل نعيش في قحط عاطفي؟"ص٤٣ويتضح هنا أن الغاية تبرر الوسيلة، فإن لم يتوفر الحب فإن العلاقة الجنسية مع البخيل مع كل مسلكياته المنفرة هي الهدف لإشباع الرغبات الجنسية.

وبعد استذكار العلاقة مع البخيل تعود لتستذكر علاقتها مع وجيه الذي تعرفت عليه في الباخرة أثناء سفرها الى اليونان، وأحبّ كل منهما الآخر من النظرة الأولى"فقد تشابكت روحانا من النظرة الأولى في حميمية غامضة"ص٥١فكلاهما عاش تجربة حبّ فاشلة،هي مع البخيل ووجيه مع خطيبته التي كذبت عليه، وكانت تراسل شابا مغتربا في كندا وتحبه، غير أنّه لم يوافق على الزواج من مريم التي عشقها واعتبرها ساحرة الجمال لأنه"لا يمكنني الزواج من امرأة ضاجعها العديد من الرجال"ص٥٥ولأنها ليست بكرا فالعذرية"عقدة كل رجل عربي، ومخادع من يدعي العكس".ص٥٥لكنها تعتبره مسكينا في تفكيره وفي نظرته للمرأة لأن مواصفات المرأة التي يحلم بالزواج منها أن تكون متعلمة ومثقفة وذكية وعذراء في نفس الوقت"معادلة يستحيل أن تتحقق لأن لا شيء يصقل الشخصية إلّاا تلك التجارب"والمقصود التجارب الجنسية طبعا.

وفي جلسة العلاج الكيماوي استذكرت علاقتها بطليقها احمد، ووالد ابنها الوحيد لؤي،وكيف تعرفت عليه في المستشفى عند إجراء عملية جراحية لها لاستئصال الزائدة الدودية، وأحبته وأخلصت له ووافقت على الزواج منه، رغم معارضة والدته التي تريد لابنها زوجة من"طينتها"وهو تعبير شعبي في الثقافة الشعبية العربية"من طين بلادك لُطٌّ خدودك" ولحبها له فقد استجابت لطلبه بارتداء الحجاب، وأن ترتدي ملابس مثل ملابس والدته، وتركت عملها كمهندسة،"الزوجة الصالحة جنتها بيتها، ثم إنّنا أثرياء ولسنا بحاجة الى راتبك الهزيل"ص٦٩هكذا خاطبها، ومع أنّها أنجبت منه طفلها الوحيد إلّا انه"بدأ حربا

جديدة معي،صار يحاربني بابني، فكل صباح يأخذ لؤي الى أمّه، ولا يعود به إلّا مساء"ص٧٠ومشكلة احمد هي ضعفه أمام والدته"ما أصعب أن تحب إنسانا ضعيفا"!وفي غفلة طلقها احمد بدون سابق انذار مع أنّه يحبها ويشتهيها"الى حدّ الهوس والجنون"ص٧٥ولم تُجدِ محاولاتها مع احمد للتراجع عن الطلاق شيئا، وممّا فاقم الموقف هو وضع طفلها رهينة عند جدته لأبيه وحرمانها من رؤيته، وهي ترى في الطلاق وحرمانها من الأمومة موتا"فالرجل الذي أحببته قدم إلي حبّا عظيما وموتا عظيما أيضا، ترى هل الحبّ والموت وجهان لعملة واحدة"؟ص٨٥.

وفي الجلسة الثالثة تتذكر كيف أقامت علاقات جنسية مع نادل في مطعم، لم تسأل عن الحبّ ولا عن قيود المجتمع الذي يعتبر"الانفعالات العاطفية والعلاقات الحميمة تدخل ضمن إطار المحرمات"ص٩٢وتنتقد المجتمع بشدّة،لأنه يتغاضى عن ممارسة الرجال للجنس بينما هو جريمة بالنسبة للنساء،"حسدت الرجال، فالرجل مهما تكن طبقته يحق له أن يضاجع خادمة من دون أن يحسّ بالدونية أو تأنيب الضمير"ص٩٧.

في الجلسة الرابعة للعلاج الكيماوي تعرفت على طبيب للأمراض النفسية ورئيس لعدد من المؤسسات، منها جمعية"مناضلات"للدفاع عن حقوق المرأة وهامت به غراما، وسعت كثيرا للقاء غرامي معه، وعندما تحقق لها ذلك وجدته عنينا–لا ينفع النساء.-وفي جلسة العلاج الخامسة تذكرت "سامح"رئيس الشركة الهندسية

التي أحبّها ولم تحبّه، مع أنّها ضاجعته، وعندما سافر للعمل في باريس افتقدته وشرعت تتحسر عليه.

وفي الجلسة السادسة استذكرت ذلك المهندس الحاصل على شهادة الدكتوراة من امريكا، والذي تزوج قبلها من ألمانية وأنجبت منه طفلا وطلقته لعقدة اليتم التي يعانيها، فقد توفي والداه وهوطفل،كان سيء الطباع بذيء اللسان يحتاج الى حنان الأمومة الذي افتقده طفلا، ويحاول أن يجده في زوجته، مما ذكرها بطفلها الوحيد لؤي.

وتتواصل ذكرياتها في كل جلسة علاج ،حيث تذكرت علاقتها بالطبيب الذي يمارس الاجهاض وتضاجعه مع أنّها لم تحبه، وتتذكر كيف زارها ابنها وهي في جلسة العلاج الثامنة، وكان على أبواب إنهاء مرحلة الدراسة الثانوية تمهيدا لسفره للدراسة في بريطانيا، وكيف سعدت به وبلقائه، ووجدت فيه حبّها الصادق، كما تتذكر خالد شقيق صديقتها فدوى والمتزوج من امرأة مهووسة، لكنه لم يطلقها رغم تعاسة حياته الزوجية، وبعد ذلك إعجابها بالطبيب الجراح الذي استأصل ثديها، والذي سبق له وأن تزوج انجليزية، أنجبت منه طفلة وتطلقت بعد عشر سنوات وهربت بابنتها.

وتختتم روايتها بالحديث عن آمال التي زارتها في المستشفى لمواساتها، بعد استئصال ثدييها المصابين بالسرطان، وكيف أن زوجها طلقها بعد مرضها، كما

تحدثت عن ميول ابنها لنورا بنت خاله وهي من جيله، ولتموت آمال وحيدة ويموت معها طائر الحبّ.

الهروب من الفشل: هربت الساردة مرتين خارج بلدها،مرّة في رحلة استجمام الى اليونان لتتطهر من علاقتها مع البخيل، ومرّة الى استراليا حيث أخوها المغترب يعيش هناك بعد طلاقها من زوجها الطبيب احمد، وحرمانها من رؤية طفلها الوحيد لؤي ،ويبدو هنا أنّ هذا الهروب جاء استجابة لما يقوله أطباء الامراض والعلوم النفسية والاجتماعية، بأن السفر الى الخارج بعيدا عن ساحة الحدث،يعتبر علاجا نفسيا ويجلب الراحة النفسية للمسافر.

الأمومة: دافعت الساردة –مريم– في الرواية عن حقها في الأمومة، بل إنّها وجدت في زيارة ابنها لؤي لها أثناء إحدى جلسات العلاج الكيماوي متنفسا لها أنساها آلامها، ووجدت فيه متعة ولهوا أكثر بكثير من ذكرياتها عن علاقاتها الغرامية مع الرجال، وهي رأت أن حبّها الذي لا يتزعزع هو حبّها لابنها، لكن في البناء الروائي لم ينضج هذا الحبّ تجاه الابن وهو في المهد صبيا، فعندما كان أبوه يأخذه الى جدته صباحا ولا يعيده إلّا مساء،لم نلاحظ مقاومة الأمّ لذلك، مع أنها تركت عملها وبقيت في البيت للعناية بزوجها، فهل آثرت حب الزوج على حب الابن؟ وبعد طلاقها وحرمانها من رؤية ابنها لم تحاول أن تستعيده، وهي المرأة المتعلمة والمثقفة والعاملة، مع أنّ حضانة الأمّ للطفل هو حق للأمّ حسب الشرائع السماوية والقوانين الوضعية، فلماذا لم تتطرق الرواية الى هذه

النقطة؟ أم أنه مقصود من المؤلفة لتترك الأمّ حرّة في البحث عن علاقات جديدة لها مع رجال جدد؟

وماذا بعد؟

تعتبرهذه الرواية ثورة على الموروث الديني والثقافي والاجتماعي العربي، وأعتقد أنّها غير مسبوقة من ناحية الجرأة في المضمون، ويبدو أنّ الكاتبة واسعة الاطلاع في علم النفس وعلم الاجتماع، فقد جمعت نماذج مختلفة لتجارب حياتية لبضع نساء وطرحتها في قالب روائي بطلته امرأة واحدة.